عوامل الضعف في تكوين الفرد

وطرق علاجها فى الأسرة والمدرسة

لحضرة صاحب السعادة بهى الدين بركات باشا

" هذا المقال كان موضوع محاضرة نفيسة ألقاها حضرة صاحب السعادة بهى الدين بركات باشا فى معسكر الرواد بمدينة القاهرة مبينا فيها آثار التربية البيتية فى مستقبل الفرد ووسائل تهذيب هذه التربية . وقد استأذنا سعادته فى نشرها فأذن بعد أن تفضل فأعاد الطرفى بعض نقطها ونقح بعض تفاصيلها "

المحرر

استوقف نظرى وأنا أطالع إحدى المجلات ما قرره أحد الخبراء الزراعيين الامريكيين إذ قال : " ان الفلاح المصرى وصل فى بعض الشؤون الزراعية بفضل مثابرته وتجاريبه واجتهاده الى درجة لم يصل اليها العلم الحديث. ولقد علمته التجارب من طرق الزراعة ووسائلها ما يأتى بأحسن الثمرات " .

ولقد يدهش المرء لهذه الشهادة ، ولكنه اذا فكر فى أن الحاجة تفتق الحيلة ، وفى أن الضرورة أم الابتكار ، عرف كيف تستطيع الجهود المتضافرة المتواصلة أن تصل الى ما لا يستطيعه العلماء أنفسهم .

وبعد فهذه شهادة أحد العلماء لنتيجة ما وصلنا اليه بفضل عنايتنا بنباتنا وزرعنا . فهل نحن وصلنا الى بعض هذه النتيجة فيما يتعلق بتربية أبنائنا وبناتنا ؟

إغشَ أى مجلس من مجالس الفلاحين تجدهم يبحثون فى مواعيد الزراعة وفى العلامات المبشرة بنجاحها ، وفى طرق ريها وحرثها ، وفى كيفية تسميدها وخدمتها ، وفى الوسائل الناجعة فى القضاء على آفاتها وغير ذلك .

ثم اغش مجالس أهل المدن ، تجدهم يتناقشون فى سياسة الأحزاب والمفاضلة بين الزعماء ودرجات الموظفين وأسباب اختيار فلان للوزارة دون فلان . ولكنك لن تجد أو قلما تجد مجلسا يتناقش فى خير الطرق لتربية الأطفال وأحسن الوسائل لمعاملتهم وتقويم المعوج فيهم .

وإذا صادفت مجلسا مثل هذا فستسمع المتحدثين ينسبون العيب الى المدرسة والقصور الى الحكومة ، ويندر أن تصادف من يعرف أن للطفل ذهنية كالورق الشفاف ينطبع عليها كل مايمر بها ، وذاكرة كالمرآة ينعكس فيها كل مايراه ، وأن لهذا الانطباع والانعكاس أثرهما الباقي فى نفس الطفل وفى أخلاقه حتى بعد أن يتكون ويصير شابا ثم يستوى رجلا .

فهل فكرنا ، ونحن نأخذ بأسباب تربية أولادنا ، فى أن نكف عن ارتكاب النقائص أمامهم وفى أن نكون نموذجا حسنا لهم ، حتى نحفظ تلك الذهنية وتلك المرآة بعيدتين عن كل المؤثرات السيئة .

ولعل جمهرة الآباء والأمهات عندنا لا يشعرون بأن عليهم واجبا لأولادهم ، ولا بأن الأمثلة السيئة التى يراها الطفل ستلازمه حتما مدى الحياة .

ألسنا نرى كثيرا من الآباء والأمهات يعودون أولادهم الكذب ويطبعون فيهم روح الحسد بما يروون أمامهم من القصص وما يوحون اليهم من الايحاءات ؟ كم من الآباء والأمهات يتنبهون إلى أن كثيرا من الحوادث العائلية والمشاحنات الفردية لا يجوز ذكره أمام أبنائهم وبناتهم حتى لا يفقدوا روح العطف على أهليهم وحتى ينشأوا طاهرين من عيوب هؤلاء الأهل مبرأين من نقائصهم ؟ وكم منهم يتنبهون إلى أنهم إنما يغرسون بأيديهم بذور الحقد والحسد بين أبنائهم عند ما يقول الواحد منهم لابنه : أنا أحبك أكثر من أخيك . أو : كل هذه القطعة من الحلوى ولا تخبر أخاك . أو خذ هذا القرش ولا تقل لأختك ، وما إلى ذلك مما يعود الطفل منذ نشأته عدم الاخلاص وقلة الصراحة والالتجاء إلى التخفى والمواربة والمخاتلة فى كل ما يفعل ؟

كذلك كان من نتائج إهمالنا الوسائل الصالحة فى تربية الأولاد ، أننا ونحن نعمل على توفير أسباب الرفاهية المادية لأبنائنا نغفل الناحية المعنوية إغفالا تاما . فلقد كنا إلى عهد غير بعيد نسمع أن الولد لا يجوز له أن يجالس أباه ، وأن الزوجة لا يصح لها أن تأكل مع زوجها ، وأن الطاعة الذليلة العمياء واجبة لكبير البيت حتى فيما لا تجوز الطاعة فيه . وما درى أصحاب تلك المبادئ الغريبة أنهم كانوا يزرعون بذلك روح الذل والعبودية فى أبنائهم وبناتهم ويعطلون فيهم كل الصفات التى تؤهلهم لأن يكونوا أفرادا أحرارا أعزة محترمين .

حقا لقد تغيرت هذه الأحوال بعض الشيء ، ولكن التغير قد تناول الشكل وحده ، أما الجوهر فلا يزال على ما كان عليه ، وما فتىء كثير من الآباء يتوهمون الأدب والطاعة فى نوع من التربية يجعل من أبنائهم آلات صماء عمياء فلا رأى ولا تفاهم ولا اقتناع . والأدب فى عرفهم أن يجلس الطفل فى حضرتهم جلسة خاصة ، وألا يشترك فى الحديث ، وألا

يبدى سروره أو دهشه مما يسمع ، وألا يضحك ، وألا يصحح واقعة سمعها تروى على غير حقيقتها ، وألا يبكى إذا ضرب . والطاعة فى عرفهم أيضا أن يتلقى الطفل الأوامر فينفذها مهما كانت ، حتى ولو لم يفهمها .

لا شك أن أولئك الآباء يجهلون أن الطفل فى حاجة دائمة إلى الحركة ، وأن السكون والهدوء فى الطفولة الأولى علامة من علامات المرض والخمول ، وأن الطفل الذى يضرب ولا يبكى إنما هو طفل قد طبع على الذل والاستكانة وضعف العاطفة وفقدان الإحساس ، وأن الطفل الذى لا يسمح له بأن يفكر ويناقش ويعارض ويستفهم ويقتنع لا يمكن أن يكون فى يوم من الأيام رجلا حرا يعتز بعقله ومداركه ومواهبه .

الأدب والطاعة شيء ، والخضوع والتسليم شيء آخر . فليفهم الآباء ذلك حق الفهم فلا يخلطوا بين الأمرين . ولو فكر الوالد فى حقوق ابنه عليه لما جعل لتفوقه المادى على هذا الابن ولا لنعرة الأبوة غير المستنيرة أثرا ظاهرا فى تربيته . وإنه لمما يدعو إلى الأسف حقا أن نرى عقلية الآباء تتجه اتجاها خاطئا حتى ليريدون أولادهم على أن يفقدوا ما فطروا عليه من حب البحث والفهم والأخذ والرد وكل ما من شأنه أن يعدهم الإعداد الصحيح لمعترك الحياة .

إن الطفل الذى يربى على الخضوع والاستكانة ينقلب طاغية مستبدا يحب أن يذيق الناس ما ذاق منهم إذا ولى أمورهم . وإنى لا أزال أذكر أنى فى المراكز الحكومية التى شغلتها كنت أعمد إلى كثير من العناء لأحمل الموظفين الذين يعملون تحت رياستى على أن يكونوا أحرارا فى إبداء آرائهم . فلقد انطبع فى أذهانهم أن احترام المرءوس لرئيسه لا يكون إلا بافناء شخصيته أمامه والموافقة على كل ما يصدر عنه وإن كان خطأ . وكثيرون من المرءوسين يتوهمون أن من عارض الرئيس لا يمكن أن يكون محلا لرضاه فالخير كل الخير فى أن يسايره ويقرظه ويحبذه حتى فى غير مالا يصح ومالا يجوز . فلعمرى كيف يتحقق التعاون بين الرؤساء والمرءوسين وهذه حالتهم النفسية ؟ وكيف يتأتى أن يرقى مجتمع هذه عقلية أفراده ؟

وإنى لأذكر كذلك أنى لاحظت ، لما كنت وزيرا للمعارف ، عدم توافر الاتصال بين رجال التعليم ، ذلك الاتصال الذى يسهل عليهم بحث نظم التربية والتعليم ويمكنهم من توحيد الجهود وتنسيقها وتوجيهها لترقية تلك النظم واصلاح ما فيها من العيوب . ولقد فكرت يومئذ فى إنشاء مجلة تختص لشؤون التعليم وتكون فى الوقت نفسه أداة الاتصال بين رجاله ، ودعوت فعلا بعض كبار موظفى الوزارة الفنيين لأباحثهم فى الأمر . ولشد ما هالنى سؤال أحدهم إذ قال : " وهل يكون لتلك المجلة حق نقد النظم الحاضرة ؟ " قلت : " نعم لأن سبيل التقدم والترقى إنما هو معرفة عيوب الحاضر ، ولا يمكن لنا أن نعرف هذه العيوب إلا من طريق النقد . وما دامت البحوث دائرة فى الحدود العلمية والفنية لا تتعداها إلى الأشخاص والسياسة والدين فمجالها واسع أمام الباحثين " . فأجابنى الموظف وقد شعر

بوقع سؤاله على نفسي ، بأنه إنما أراد الاستفسار لأن الفكرة كانت قد عرضت في عهد أحد الوزراء السابقين فاعترض عليها وقال : كيف يسمح لرجال التعليم ، ومهمتهم الدفاع عن الوزارة ونظمها ، بنقد أساليب التعليم ومناهجه ؟

أرجو ألا يدهشكم ذلك . فلقد كان الوزير الذي أشير إليه رجلا معروفا بين الناس بالحكمة وأصالة الرأي وحسن التدبير ، ولكن الأمور تشابهت علينا والتبست ، والتربية البيتية العتيقة افقدتنا موهبة التمييز بين فوائد النقد للاصلاح ومعايب النقد للتشهير .

وهناك نتيجة أخرى لفوضى التربية المنزلية ، وهي أننا بما يسمعه الأطفال من مشاحنات آبائهم وذويهم ، ومن الخلافات الصغيرة والمشادات الحقيرة أمامهم ، عملنا ونحن لا ندري على تعويدهم احتقار أبويهم وإخوتهم الكبار والانتقاص من الاحترام الواجب لهم ، كما اضعفنا فيهم روح التعاون والتضامن في البيت ، وجعلناهم يألفون سفاسف الأمور والمناظرات الوضيعة والحالات المبتذلة ، فاذا كبروا لم يعفوا عن شيء من هذا ولم يتورعوا عن أن يأتوا مثله في صور مكبرة وفي ظروف تتجاوز حدود البيت والأسرة إلى الحياة العامة التي يعملون فيها .

ولا شك أن ما نشاهده في بعض البيئات من الاستهانة بكرامة الغير واستباحة السمعات والأعراض ، ومحاولة التصغير من شأن العاملين وتعمد الحط من قيم المجدين إنما هو أثر من آثار تلك التربية البيتية التي تلقنها الأطفال فشبوا عليها واستساغوها وأصبحت ديدنهم في الحياة وهل ما نعلمه من أعمال بعض المديرين في الأقاليم وبعض الرؤساء في الدواوين ، إذ يريدون أن يجعلوا لأنفسهم مكانة واحتراما ، فيحاولون تشويه عمل سلفائهم أو إبطاله ، وهل ما نسمعه عن فشل أصاب جماعات أنشئت لتعمل متحدة متآلفة فتخاذلت وتحاسدت ، هل كل ذلك سوى أثر من آثار التربية البيتية التي ربتهم على الأنانية وحب الذات والرغبة في الاستئثار بالنجاح ، فخرجوا إلى الحياة لا يفهمون روح التضامن والتعاون ؟

ولهذه المناسبة أذكر أني كنت في تركيا سنة ١٩٢٩ وذهبت لمشاهدة مباراة في لعبة كرة القدم بين الفريقين التركي والمصري . فلقد كان المصريون أكثر دربة ومهارة وسرعة وإلماما بأصول اللعب ودقائقه ، ولكن روح التعاون كانت تنقصهم . فكنت أرى الواحد منهم إذا بلغت الكرة قدمه يستأثر بها ويحاول أن يقاوم المتكاثرين عليه ويمرق من وسطهم ليبلغ الهدف وينال وحده فخر إصابته . وهكذا كانت تفوتهم ثمرات التعاون الواجب في هذه اللعبة ، وهكذا انتصر عليهم الفريق التركي ، وما كان لينتصر لولا ذلك النقص الذي شاهدته في اللاعبين المصريين والذي لا أرجع أسبابه إلا الى أنهم لم يتعلموا التعاون والتضامن في البيت قبل أن يبرزوا إلى ميادين الحياة .

التعاون سر من أسرار النجاح خفي علينا أنه يقوي الضعفاء ويزيد في قوة الأقوياء فيجب أن نربي أولادنا على حبه والعمل من طريقه . أما أن نتركهم للصدف وندعهم

للا قدار كأعشاب الغابة ، تمو فوضى لا نظام لها ، فيقتل قويها ضعيفها ، ويتغلب خبيثها على طيبها ، فإثم له عواقبه المسيئة وأخطاره الشديدة . فما أحرانا ، إن أردنا لأبنائنا نجاحا وفلاحا ، أن نتعهدهم كما نتعهد الزرع ونحرث له الأرض ونرويها ونطهرها من الطفيليات الخبيثة والحشرات المؤذية .

لقد شعر كثير من الناس بنتائج تلك الحال السيئة فالتمسوا لها علاجا من طريق تعرف الوسائل الطيبة فى معاملة أولادهم وغرس روح الاستقلال فى نفوسهم . ولكنهم ما لبثوا أن تغلبت عليهم روح الزهو والمفاخرة ، فنظروا إلى أبنائهم لا نظرة العاقل الأمين الحريص على فلذة كبده ، بل نظرة المباهى الفخور بجمال ولده . فأسرفوا فى تنعيمهم وترفيههم واظهارهم على أولاد الغير بحسن الهندام وأناقة الملبس وفخامة المركب ، فجنوا عليهم وعلى أنفسهم من حيث لا يعلمون .

لكم رأينا من الأطفال عندنا من يلبسون الحرير والغالى من الثياب بينما ثروة أبويهم لا تسمح بشيء من هذا ، وكم من أم تباهى بأن ابنها يلبس أفخم مما يلبس ابن فلان الثرى ، ومن يبلغ بها الزهو حتى لاتشترى ملابس أولادها إلا من أوروبا ، غير عابئة بالأثر السيئ الذى ينطبع فى ذهن الطفل ، فيركز اهتمامه فى تلك الناحية ؛ حتى إذا ما شب ، وجد والديه غير قادرين على أن يحفظا له من النعيم ما عوداه فى نشأته الأولى ، فيقع الخلاف فى الأسرة ، ويغلو الولد فى مطالبه وهكذا تكون الأسرة ضحية صراع داخلى ، وفريسة تبذير ينتهى بخرابها .

ومما يؤسف له أن هـذا الضعف يسرى فى كثير من الأسر ، بطرق شتى ، خصوصا فى تربية البنت . فان كثيرا من السيدات يضعن مسألة الزى فى المرتبة الأولى من تفكيرهن ، ولا يحسبن لثروتهن أو ثروة أزواجهن أى حساب . فتنشأ البنت فى هـذا الوسط ضعيفة مبذرة ، لا تستطيع أن تقوم بواجبها نحو منزلها ولا نحو أولادها ، وترى الثروة التى لديهـا قليلة حتى ولو كانت واسعة ، لأنها لا تستطيع لنفسها تدبيرا . وبذلك ينتقل الآباء من خطأ إلى خطأ آخر . ذلك أن معالجة أمور الطفل من أدق المسائل وأعقدها ، وهى أجدرها بالعناية والاهتمام . ولايصح للإنسان أن يأخذ برأى دون أن يقلب الأمور على جميع وجوهها أو دون أن يبحث عن ذوى الرأى والتجربة للاسترشاد بهم فى معالجتها . ومع ذلك فلا يظن إنسان أن التربية والبيئة هما كل شيء ، فان للطبيعة نفسها وللخصائص التى ورثها الطفل عن الأجيال السابقة فتركزت فى نفسـه ، أثرا فعالا فى تكوينه . فنحن بوسائلنا انمـا نساعد الطبيعة ، ولكنا لا نستطيع أن نخلقها خلقا جديدا . وما الأسرة إلا صورة مصغرة للمجتمع الذى تعيش فيه . فاذا رمنا لهذا المجتمع صلاحا وجب أن نبدأ بالأسرة أولا . فاذا صلحت الأسرة عملت على إصلاح المجتمع .

والآن وقد عرضت لأحد عوامل الضعف فى تكوين الأسرة للفرد ، انتقل إلى عامل من عوامل الضعف فى تكوين الفرد فى المدرسة .

كانا نسمع الشكوى المرة من حالة التعليم ، ونسمع الصرخة العالية ضد نشر التعليم فى الأرياف لأنه يحول بين المتعلمين و (الغيط) ، فالولد الذى يدخل المكتب أو الكتّاب يرفض بعد ذلك أن يتولى عملا من أعمال الزراعة . وكثيرا ما نقرأ فى الجرائد عن العاطلين من حملة الشهادات وما يجب لهم من التشجيع ، ونقرأ الاقتراح تلو الاقتراح عن وسائل تفريج تلك الأزمة وعما يجب على الحكومة إزاءها . وبعد أن كان الناس يقدسون العلم ويرونه خطوة نحو الكمال الانسانى ، أصبحوا يشكون فى فائدته ويرونه خطرا على المجتمع ، ويرون وجوب الاحتياط فى تناوله ، بحيث نقتصر منه على القدر الضرورى . وبعد أن كان الشك فى فائدة العلم مقصورا على الطبقة الجاهلة من الناس ، أصبح حديث الجميع . ففى أرقى المجالس العلمية تسمع كثيرا من الناس يقولون بوجوب حصر التعليم حتى لا تزداد طبقة المتعلمين الذين لا يجدون وظائف فى المجتمع فينقلبون خطرا عليه ، ويكونون أداة اضطراب فى البلاد .

وإذا ناقشت هؤلاء القائلين أجابوك على الفور : ألا ترى أن حملة الشهادات أصبحوا عالة على الأمة ؟ ألا تراهم يأتون اليك كل يوم طالبين وظائف حكومية ؟ وكيف تكون الحال إذا ظللنا ماضين فى هذه السياسة ؟ أليس الأجدر بنا أن نعترف بالأمر الواقع ونواجه الحقائق كما هى ، ونترك الأفكار النظرية لنكون عمليين ، وندرأ خطر الفوضى عن البلاد قبل استفحال الخطب ؟

فهل صحيح أن الأمور انقلبت رأسا على عقب ، حتى وصلت إلى هـذا الحد ؟ وهل أصبح العلم خرافة من الخرافات . بعد أن عشنا نفاخر به ، ونحض عليـه ، ونردد الحكمة الجارية "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد" ونلهج بالمثل السائر "اطلبوا العلم ولو فى الصين" !

كلا ! لم تنقلب الحقائق . ولكنا رأينا حالة شاذة ، ووجدنا أمامنا اضطرابا فى المجتمع كان مظهره حملة الشهادات وخريجى المدارس ودور العلم . فربطنا إحدى الظاهرتين بالأخرى ، وضل بنا المنطق . واعتقدنا أن الخطر ناشئ من العلم وأخذنا ننادى بالحد منه ، بتقليل عدد طلابه ، ولكنا لحسن الحظ لا نؤمن بهذا المذهب كل الإيمان فليس منا من يرضى أن يعمل بهذه النظرية بالنسبة لأولاده . وإذا طبقت على أحدهم كان أول ساع إلى المطالبة الملحة باستثنائه . أو رأيته أفصح مدافع عن وجوب فتح أبواب التعليم لجميع الناس ، وإلا اضطروا إلى إرسال أولادهم إلى أوروبا . فالحمد لله الذى جعل غريزة الدفاع عن النفس أقوى الغرائز ، فهى تتغلب على جميع النظريات . وكثيرا ما تصل من طريقها إلى الحل الصحيح دون اعتبار لما ينسجه المتفلسفون من الأفكار ، وما ينادى به السفسطائيون من المبادئ .

الحق أن العلم لا يزال هو هو ، وأن له من القداسة اليوم كل ما كان له فى الماضى . ولكن نظم التعليم والمدرسة عندنا تغشاها عيوب جعلتنا نشعر بالأزمة الشـديدة التى نشكو

منها اليوم ، فضل كثير من الباحثين ونسبوا إلى العلم ما هو راجع إلى نظم التعليم والمدرسة. فإن مما لا يحتاج إلى دليل أو برهان أن العلم زيادة فى المعرفة . وإذا زادت معرفة الإنسان كان أقدر على المكافحة فى الحياة ، وأقدر على استثمارها واستدرار خيراتها . فاذا ظهر لنا خطر من حالة من نسميهم متعلمين فانما يكون ذلك لعيب فى تعليمهم ، وضلال فى طريقة تنشئتهم . فالتعليم الأولى ، وكذلك الابتدائى ، بل الثانوى ، لا يمنع الولد من ممارسة أى عمل من الأعمال البدنية فى أوروبا . بل يزيده استعدادا له ، ويفتح له مجال التقدم فيه. أما نحن فحالما يصل الفتى إلى الشهادة يعتبر نفسه كفئا لتولى وظيفة حكومية ، ولا يرضى بمزاولة عمل أبيه ، من تجارة أو برادة أو طهى أو غير ذلك . فما السر فى هذا ؟ لقد استعرضت أمامى عوامل عديدة لتلك الحالة . منها أن المتعلمين عندنا لا يزالون قليلى العدد ، فمن تعلم منا اعتبر نفسه انتقل إلى طبقة ارستقراطية تعطيه حقوقا أكبر من حقوق زميله الأوربى . تفسيراً له وجاهته . ولكن كيف لم تستطع الأزمة الشديدة التى مررنا بها أن تخفف من غلواء هؤلاء الناس ؟ بل كيف لا يغير تلك الحالة ما نرى عليه حملة الشهادات من الفقر والعوز ؟

الجواب على ذلك أن هذا كله كان يجب أن يغير هذه الحال تماما ، لولا أن فى تعليمنا عنصرا يبدو فى ظاهره بسيطا ولكنه عميق الأثر فى نفسيتنا وطريقة تفكيرنا . ذلك العنصر هو اللباس الذى يرتديه الصبية فى المدارس . فلقد قضى النظام المتبع فى مدارسنا الابتدائية بأن يلبس الولد الملابس الافرنجية ، فهو منذ صغره يلبس لباسا مخالفا تمام المخالفة للباس والده ، فيثبت فى ذهن الولد — بل فى ذهن والديه — أنه صار من طبقة غير طبقتهم ، فهو من الحكام ! وأهله من المحكومين . فلا يصح له من تلك الساعة أن يعمل عملهم ، أو يساعدهم فى مهنتهم . فهو لن يكون نجارا ولا برادا ولا طاهيا ، بل لا ينبغى له أن يكون ناظر زراعة ولا بائعا ولا تاجرا . يجب أن يكون "أفنديا" فى الديوان ! هذا من أهم الأسرار فى تلك الأزمة المروعة ، وفى أن المتعلمين من الأوربيين يقبلون تلك المهن ويباشرونها بأنفسهم . وقد يتدرجون فيها إلى أن يكونوا أصحاب ثروة وجاه عريض . أما نحن فلا نتولاها ولا نعمل فيها إلى درجة ما . ذلك أنهم لا يأنفون العمل مهما يكن نوعه . بل يحبونه ويحترمونه ويباهون به . أما نحن فنراه مرتبة أقل من مرتبة المتعلم .

ولقد شعر بعض رجال التعليم بهذا الضرر فى المدارس الابتدائية وتلافوا جزءا منه فى الكتاتيب ، ولكن تصرفهم ظل ناقصا فلم يقض على هذا الشعور المسئ فى نفس الطفل ، وهكذا ظل ولد الكتاب مخالفا لأبيه ، غير راغب فى المزرعة التى يعمل فيها والده عارى القدمين معرضا للطين والتراب يلوثان ملابسه وجسده .

أما علاج تلك الحالة فهو أن يكون المكتب صورة لحياة الولد المنزلية بحيث لا يخرجه عن حالة البيئة التى يؤهل للعمل فيها . وبهذا العلاج تمنع الفوضى الفكرية التى تلازم الآن

كل من دخل المكتب . أما فى المدرسة فيجب أن يلبس الصبية لباسا بسيطا متينا . ومن الغريب أن مدارس البنات فى بلادنا ، حتى أرقاها — مصرية كانت أو أوروبية — تنحو هذا النحو ، فالبنات يلبسن جميعا سراويل من نوع واحد ، مصنوعة من نسيج رخيص الثمن . أما الأولاد فيلبسون أربطة الرقبة الحريرية ، والأقمشة الغالية الدقيقة الصنع . والأحذية الرشيقة . فما هذا ؟ وكيف ننتظر للولد بعد هذا التغالى أن ينشأ رجلا قويا يشتغل بساعديه ولا يبالى مجهود الرجال الجثمانى .

نشئوا الأولاد هذه النشأة النافعة ، نشأة البساطة والقوة والاعتماد على النفس ، تروا منهم رجالا يحبون العمل وينهضون به بنجاحهم فيه ، فيكونون ملوك الصناعة والزراعة والتجارة ، كما هى الحال فى أوروبا . أما تلك العيشة الناعمة فليست من شأن الرجال الناهضين .

جربوا هذا وقدروا تأثيره الأدبى والنفسى فى الأطفال وذويهم . ثم قدروا ما يدره من الخير على تلك الطبقة المتوسطة من الأمة ، تلك الطبقة التى رزقت من الصفات الخلقية الممتازة ، ومن حب العمل والاجتهاد والمثابرة ما نغتبط له أشد الاغتباط ، وما يقلل من تكاليف أولادهم ؟ ويعودهم الاقتصاد فى معيشتهم ، لأن تربية أولادهم تصبح فى متناول أيديهم . فينشئونهم نشأة صالحة يزول معها كثير من أسباب الخلاف الذى ينجم من عجز الآباء عن تحقيق أطماع أولادهم فى الملبس والمعيشة ، لأن المناظرة فيها ستزول بارتداء الأولاد جميعا رداء واحدا . هذه ناحية من نواحى الضعف فى المدرسة .

وهنالك ناحية أخرى ترتبط بها . فنحن كما نسمع الشكوى عالية من أصحاب الشهادات ، نسمع مثلها من جانب الجامعة ورجال التعليم العالى ، فهؤلاء يقولون إن مستوى الثقافة فى الشهادة الثانوية أقل مما يؤهل للدراسات العالية . ولذلك طالب الكثيرون بقصر من يدخلون المدارس العالية على عدد محدود ، أو اشتراط نسبة مخصوصة من النجاح فى الشهادة الثانوية .

ومن جهة أخرى نسمع صيحة لآباء الشبان الحائزين للشهادة الثانوية الذين لم يقبلوا فى المدارس العالية ، فهم يقولون ماذا نصنع بأبنائنا وقد وصلوا إلى درجة من العلم هى بإقراركم كافية لتدرجهم فى التعليم العالى ؟ وبين هذين الرأيين نرى وزارة المعارف تتذبذب فى تطبيق المبادئ . فهى طورا مع الفريق الأول ، وطورا مع الفريق الثانى ، فاذا ما اتبعت الرأى الأول كثر عدد العاطلين ، واذا ما اتبعت الثانى انحط مستوى التعليم ، ونال الشهادات العالية من ليسوا أهلا لتولى الأعمال التى يجب أن يهيئهم لها ذلك النوع من التعليم . فاذا لم يجدوا عملا صرخوا صرخة طلاب " البكالوريا " الذين لم يجدوا محلا فى المدرسة . وبذلك تكون الأزمة قد انتقلت من حائزى الشهادة الثانوية الى طلاب الشهادات العليا أو حائزيها .

ولو أننا وجهنا الأمور على حقيقتها لكان علاجها يسيرا . ذلك أننا نرى المدارس العالية تشترط نسبة للنجاح هى ٦٠ فى المائة . بينما يمر الطالب فى الشهادة الثانوية إذا جاز الامتحان

بنسبة ٤٠ فى المائة ، والبون شاسع بين الدرجتين فى التحصيل ومن الواجب أن يكون الطالب فى الشهادة الثانوية مؤهلا حقيقة للدراسة العالية ، وأن تكون مقدرته على التحصيل قريبة من الدرجة المطلوبة للدراسة العالية . وبذلك يزول الإبهام الموجود فى النظام الحاضر ، ويجد الآباء ميزانا صحيحا يستطيعون أن يزنوا به استعداد كل من أبنائهم ، ويكون الحاصلون على الشهادة الثانوية قادرين على الاستمرار فى الدراسة العالية ويحق لهم عند ذلك أن يطالبوا وزارة المعارف بأن تعمل على إيجاد الأمكنة الكافية لجميع المتعلمين الذين وصلوا إلى درجة معينة تسمح لهم بمتابعة دراستهم العالية . وسيزول الخطر الذى نخشاه لأن العدد سيقتصر بمجرد تطبيق هذا النظام على من يكونون صالحين حقا لتلقى التعليم العالى ، والذين تؤهلهم كفايتهم للأعمال المنتجة بعد ذلك . وهذا الذى أريده فى الدراسة العالية ، هو نفسه الذى يرشد إلى الحل الصحيح لبعض مشاكل الدراسة الثانوية ، فشهادة الكفاءة ، أو شهادة الدراسة الثانوية (قسم أول) يجب أن تكون على درجتين إحداها تعد للدراسة الثانوية فالعالية ثم لمستوى الثقافة والتعليم النظرى والعملى العالى ، والأخرى تعد للمدارس الصناعية والزراعية والتجارة المتوسطة .

أما الشهادة الابتدائية ، فلعمرى لست أدرى ما المبرر لبقائها سوى تحميل الوزارة والمدرسين والممتحنين عبئها وتضييعهم الوقت على غير جدوى لإجراء امتحاناتها ، وهذا فضلا عما هو ثابت فى أذهان الناس جميعا من أن الشهادة تؤهل صاحبها لعمل ، وتعطيه حقا على الدولة والمجتمع ، فمن حاز شهادة رأى لنفسه هذا الحق ، وثبت فى ذهنه المطالبة بمستوى معين من الوظائف والأعمال . فما الداعى إلى إبقاء هذه الحالة ، سوى مساعدة العوامل التى تتعاون على مضاعفة الأزمة ، وزيادة طبقة غير القانعين فى البلاد ؟

لذلك نرى لعلاج هذه الحالة أن تكون المرحلة الأولى هى شهادة الكفاءة . على أن يجعل الناجحون فيها فريقين : أولهما الفريق الممتاز الذى يرهن على استعداد لمتابعة الدراسة الثانوية فالعالية ، والثانى هو الفريق الأقل استعدادا ، والذى لا يصلح إلا لمتابعة الدراسة فى المدارس الصناعية والزراعية وغيرها . وإذا نحن جعلنا الوسط المعاشى فى المدارس الابتدائية — الى الكفاءة — على ما قدمنا ، فان الأولاد لا ينفرون عند ذلك من مزاولة مهنة آبائهم وأهليهم . وبذلك نساعد على إيجاد طبقة نالت حظا من التعليم يمكنها أن تعمل بنشاط على رقى البلاد الصناعى والزراعى ، ونتلافى أزمة من أشد الأزمات التى تهددنا فى مستقبلنا ، ونغرس فى نفوس الأمة وشبيبتها أن العمل وحده عصب الحياة وقوامها .

بهى الدين بركات